Archive of SID

المطر وتجلياته فی شعر امرئ القيس وعبيد بن الأبرص

علی معدلی*
محبوبة محمدزاده شيرازی**

الملخص

المطر مظهر من رحمة الله على خلقه وله دور هام فی حياة البشرية، والإنسان اهتم منذ هبوطه إلى الأرض إلى يومنا هذا بالمطر، والشعراء كلهم قاموا بتوصيفه وتشبيهه والتعبير عنه فی دواوينهم وكلامهم المنظوم، وأكثروا من توظيف صورة المطر فی موضوعاتهم المختلفة كصورة المرأة، والممدوح والمرثی وصورة الحرب والحيوان وما إليها من الصور الجميلة والبديعة. فالبحث هذا يكون شرحاً مختصراً حول المطر فی بعض معانيه وصوره التی عالجناها فی ديوانی الشاعرين امرئ القيس وعبيد بن الأبرص.

الكلمات‌الدليلية: المطر، السحاب، الرعد، البرق، الرياح، التوظيف الشعری، امرؤالقيس، عبيد بن الأبرص.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فی فسا.
**. خريجة جامعة آزاد الإسلامية فی فلاورجان.

Moaddeli_ali@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٨٩/٥/١٦هـ. ش
تاريخ القبول: ١٣٨٩/١٠/١٤هـ. ش

www.SID.ir

Archive of SID

المقدمة

المطر الماء المنسكب من السماء، والمطر ماء السحاب، والجمع أَمطار وأكثر ما يجيء فی الشعر، وقد مطرتهم السماء تَمْطَرهم مطراً، وأمطرتهم: أصابتهم بالمطر. (ابن منظور، ۱۹۸۳م: مادة مطر)

والمطر هو أساس الحياة والخلق والخير والرحمة للعباد، وقد ورد ذكره بكثرة فی القرآن الكريم بلفظ الماء والغيث مصدرا للفوائد الكثيرة قال الله تعالی: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم: ۲۴) ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ (الفرقان: ۴۸) ﴿وَهُوَ الَّذِی يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ (الشوری: ۲۸)

وقد أكثر العرب من استخدام المطر على الحقيقة فی أمثالهم المنوعة، فقالوا لِمن خاف فی رخاء ورغد فظن أن الناس كلهم فی مثل حاله: «يحسَبُ الممطور أنّ كلاً مطر.» (الميدانی، ۱۹۵۵، ج۲: ۴۱۷) وقالوا لمن حزن على ما فاته: «لا تَشِم الغيث فقد أودی النقدُ.» (نفس المصدر، ج۲: ۲۴۵) وقالوا لمن له ثروة ولايجدی على أحد: «ظلال صيف ما لها قِطارُ.» (نفس‌المصدر، ج۱: ۴۴۵)

وذكر العرب للمطر فی أمثالهم نابع من عشقهم له، فهو مبعث الحياة الخصب وبه حصول معايشهم من رعی وسقی وزرع، لذلک عرفوا خصائصه وأحواله واستدلوا على نزوله بالرياح وألوان السحب، وأنواع البرق وأصوات الرعد ونَمی لديهم علم كثير وغزير عنه، وقد ورد فی كلامهم المنثور والمنظوم ما يشير إلی رسوخ هذا العلم، وعمق هذه المعرفته التی نتجت عن طول تجاربهم اليومية المستمرة.

وروی أبوحاتم عن أُبی عبيدة قال: «قلت لأعرابی ما أَسَحُّ الغيث؟ فقالَ: ما ألْقَحَته الجنوبُ ومرتهُ الصَّبا ونَتَجَتهُ الشمال. ثم قال أهلک والليل، ما يری إلا أنه قد أخذه المطر.» (ابن دريد، ۱۹۶۳م: ۶۲)

ويشهد على علم العرب الواسع بالمطر ما خلفّوهُ من ثروة لغوية تفسر عمومه وخصوصه، وشدته وضعفه، وغزارته، ودوامه وتتابعه... إلی المسميات الكثيرة التی تبين أنواعه وأحواله، ومن هذه المسميات:

www.SID.ir

Archive of SID

١. الأمطار العامة: مثل الغيث، القَطْر، السماء، الجَدا، الخَرج، الوَدق، السَّبل، الصَّوب، الذِّهاب، الغَير، النّصر، الرَّجْع، الماعون، جارُّ الضَّبع، الثلة، الطَبَق، الطَّفل، الوَكيف، النُزل، الخدر، الحيا.

٢. الأمطار الموسمية: مثل الوَسمی، الوَلّی، الشَّتی، الدفئی، الصَّيف، الحميم، الرمضی، الخريق.

٣. الأمطار الشديدة: مثل الحريصة، الحِمرّ، الساحِية، العَجارِف، المُحتَفَل، القاعِف، القَشْرَة، البَغر، الرّاضِب، السادِحَة، السَّحّ، السَّحيفَة.

٤. الأمطار الضعيفة: مثل الرَشّ، الطَّلّ، الرَّذاذ، النَّضْح، النَّضْخ، البَغش، البطشّ، القطقط، الغَبية، الخَطْرَة، الشَمل، الشَّفيف، الهَدْمَة، الدَّثة، الدَّهان، الشَّحْذة، الضَّرب، الضَّعيف، الرَمَل، الهَميمَة، التلبيد، الحَشَكة، الحَفشَة، الخَبْطة، الرِّک، المرْزع، النّدی، النَّضيضَة.

٥. الأمطار الكثيرة: مثل الوابل، الجَوْد، الأَهاضيب، البوق، الجلباب، الجوَرّ، الدَّجْن، الشُؤْبوب، الطوفان، العُباب، العُراق، العَدْر، العِزّ، الغِدق، الفتح، النجو، البُعاق، السحاب، التهتان، الهتلان، الهثهثة.

٦. الأمطارالدائمة: مثل الدِّيمة، الرِّهمة، الوَطفاء، الإلثاث، الإعضان، الهَفاء، العَين، الهَطْل.

٧. الأمطارالمتتابعة: الدّرار، الرّثان، الرَّصدَة، العَهْد، اليعلول. (الأنصاری، ١٩١٠م: ١٥-١٤؛ النويری، ١٩٢٩م، ج١: ٧٧-٧٤)

وكان للشعراء وقفات طويلة مع المطر دفعهم إلى ذلک ما يعشرون به نحوه من حُب ونشوة وغبطة ورغبة ورهبة، لذلکَ تتبعوا نزوله فی دقة وعناية منذ أول بدء له حتی ينزل سيولا تغطی الآكام والوهاد، فوصفوه وصفاً دقيقاً، ورسموا له صوراً رائعة ترصد جميع مراحل تكونه، وهو سحاب يتجمع فی قبّة السماء، والرياحُ التی تلحقهُ وتحمله، والبرق المُشتعل فی أرجائه، والرعد المجلجل فی نواحيه، والأماكن التی تستقبلُه وتنعم بهطوله، والآثار التی يخلفها علی الحياة، فهو دائماً ينزل فی صورة سيول عاتية تقتلع الأشجار الضخمة، وتنزل العصم من رؤوس الجبال، وتغرق الضباع والسباع، ولكنّه يخلّف بعد ذلک الخيرَ والخصب، فتخضَرُّ الصحراء وتينعُ أزهارها ونباتاتها، وتغرّد أطيارها، وتنق

www.SID.ir

Archive of SID

ضفادعها نشوةً وفرحاً.

وقد اتبع الشعراء فى وصفهم للمطر بعض الأسس التى وضعها السابقون وتداولها اللاحقون. ويمكن تلخيصها فى الموضوعات التالية: كمناجاة الصاحب والرفيق، والسهر والأرق لمشاهدة البرق، ووصف عوامل خلق المطر من رياح وسحاب ورعد وبرق، وعملية نزول المطر فى اندفاعه وغزارته واشتداده، وآثار المطر على الطبيعة وكائناتها، والدعاء بالسقيا للأحِبَّة وديارهم.

ووضع شعراء العرب فى وصف المطر وتشبيهاته أسساً وألموا بذكره فى أشعارهم إلماماً واسعاً ومن هؤلاء الشعراء امرؤالقيس وعبيد بن الأبرص.

فامرؤالقيس ذلك الشاعر المبدع، فقد أقام بنياناً قوياً لصورة المطر، وأكثر مِن وَصْفه فى ديوانه وتغنى بصفاته حتى عدّه النقاد والشعراء: «من أجود الذين وصفوا المَطر.» (العسكرى، ١٣٥٢ق: ٤-٣؛ ابن سلام، ١٩٧٤م، ج١: ٩٤) فقد كان مبرزاً فى هذا المجال لأنه كان يصفه بحرارة عاطفته وصدق أحاسيسه وحبّه له. ففى معلقته الشهيرة يقدم مشهداً كاملاً متنامياً لرحلة المطر من السماء إلى الأرض، يشعرنا بقوة هذا المطر وغزارته واندفاعه الذى بدأه بوصف البرق ووميضه الذى يلمع كلمع اليدين، أو مصابيح الراهب، وما كان هذا البرق إلا مبشراً ونذيراً بما يحمله سحابه من أمطار غزيرة كالطوفان، ما لبثت أن انهمرت بشدة وقوة حتى غدت سيلاً عنيفاً جباراً اكتسح كل شىء وأطاح بالأشجار العظيمة وهدّم البيوت إلا ما قوى منها، وأحاط بجبل «طخية» واستدار حوله فغدا كفلكة مغزل، وغشى جبل «أبان» بأفانين ودقِه وعمّه بالخصب حتى بدا كأنه شيخ كبير قد دُثِر بكساء مخطط، ونزل بصحراء «الغبيط» وعمّها بالخصب وأنواع النبات والنور والزهر، فكأنما نزل بها تاجر يمانى فنشر ما فى عيابه من برود وأنواع المتاع والطيب، ووصف الأثر السلبى لهذا المطر الذى أحدثه سيله فى الحيوان، من سباع غرقى وعصم قد روعت وأنزلت مِن مآمِنها فى أعالى الجبالِ حيث يقول:

أحارِ تـرى بَرقـاً كأَنَّ وميضَه ... كلمـع اليدَينِ فـى حُبى مُكَلل
يضىءُ سـناه أو مَصابيحُ راهبٍ ... أَهانَ السَليطَ فى الذبالِ المفتلِ
قَعَدْتُ لَه وصُحبتى بين ضارج ... وبيـن العذيـب بعد مـا متأمَّل

www.SID.ir

Archive of SID

وأضحی یسُحّ الماءَ من کل فیقةٍ یکبُّ علی الأَذقانِ دَوْحَ الکنهبل
وتیماءَ لم یترک بها جذع نخلة ولا أطمـاً إلا مَشـیداً بجَنـدل
کأن طمّیـة المُجیمـر غُـدوة مِن السـیل والغثاء فلکة مِغزل
کأنَّ أبانـا فـی أفانیـن ودقـه کبیـرُ أنـاس فی بجـادٍ مزمل
وألقـی بصحراء الغبیـط بعاعَه نزول الیمانی ذی العیاب المخول
کأنَّ سـباعاً فیه غرقـی غَدیة بأرجائه القصوی أنابیش عُنصل
علی قَطن بالشـیم أیمن صوبه وأیسـره علـی السـتار فیذبلِ
وألقی ببسـیان مع اللیـل بَرکهُ فأنـزل منه العُصمَ مِنْ کل منزلِ

(امرؤالقیس، ۱۹۸۴م: ۲۶-۲۴)

أما عبید بن الأبرص فهو من الشعراء الجاهلیین الذین فتنوا أیضاً بوصف المطر وأبدعوا فیه وقدموا له صوراً رائعة موحیة بالحیاة والحرکة والنماء؛ ففی قصیدة من قصائده التی وصف فیها المطر وصفاً عاماً، ثم عاد وخصصه، نجده یتبع من الخطوات المتعارف علیها فی وصف المطر، فریاح الصبا هی التی تدفع السحاب وتجمعه، والصبا من الریاح المحببة إلی العرب لرقتها ولأنها تجیء بالسحاب والمطر وفیها الری والخصب، وذلک لتقوم الریاح الشدیدة بحلبه ودرّ مائه کما یحلب الأجیر أو العبدُ النوقَ العشار، ویتجمع الرباب ویدنو ویشتعل برقه کاشتعال الحریق فی الغاب، نذیراً بسقوط مطره الذی ضاق ذرعاً به، فأخذت الریاح الیمانیة تسوقه من خلفه لِتستقبله ریاح الجنوب فتحل عزالیه وتریق ماءه:

سقی الرَبابَ مُجَلْجِلُ الـ أکنـاف لمـاحُ بُرُوقـهْ
جَـوْنُ تکرکـره الصَّبـا وَهْنـا وتمریـهِ خرِیقـهْ
مَرْیَ العَسـیف عِشـارَهُ حتی إذا دَرَّت عُروقهْ
وَدَنـا یضـیءُ رَبابُـهُ غابـاً یضَرّمُـهُ حَریقـهْ
حَتـی إذا مـا ذَرْعُـهُ بالماء ضـاقَ فما یطیقهْ
هَبَّـتْ لـه مِـن خَلْفِـه ریـحُ یمانیـةُ تَسـوُقهْ
حلـتْ عزالِیـهُ الجَنـو بُ فثـجَّ واهِیـة خُروقهْ

(ابن الأبرص، ۱۹۵۷م: ۹۰-۸۹)

www.SID.ir

Archive of SID

ولو تتبعنا شعر الشعراء الجاهليين كلهم لندَرَ أن نجد شاعراً منهم لم يطرق إلی وصف المطر من قريب أو بعيد، فوصفهم لَهُ ينبع من ارتباطهم القوی به، فهو المعادل الحقيقی لحياتهم فی مجتمع يعتمد معظمه علی مياه الأمطار، فهُم يتعاملون معه بحب ورغبة ورهبة وخوف منه فی هذه الصحراء المترامية الأطراف، خاصة إذا جاء مُدمّراً مخرباً، لذلک طبع وصفهم له بطابع الحيوية والصدق والحياة.

وكان جديراً بالذكر شرح معطيات المطر كالسحاب والرعد والبرق و... وذكر مسمياتها وما يتعلق بها من الأمثال والشواهد، لكنها لم تصنع الفرصة فی هذا المقال، ونكتفی بذكر بعض الشواهد من أبيات امرئ القيس وعبيد بن الأبرص:

من أجمل الأبيات فی وصف السحاب بيت لامرئ القيس:

ديمة هَطــلاءُ فيها وَطفُ ... طبَقُ الأَرضِ تحرّی وتدّر

(امرؤالقيس، ١٩٨٤م: ١٤٤)

قوله طبق الأرض غاية فی صفة عموم السحاب، أراد أنها علی الأرض بمنزلة الطبق علی الإناء.وأنشد عبيد بن الأبرص فی السحاب إذا كان أسود وأخضر يضرب إلی السواء فهو المحمل بالماء، الغزير الأمطار:

يا من لبرقِ أبيت الليلَ أرقبه ... فی مُكفَهِرّ وفی سوداء مركومَهْ

(ابن الأبرص، ١٩٥٧م: ١٢٩)

وقد تفرد امرؤالقيس بصورة رائعة تجسم لمعان البرق وضياءه، فهو الذی شبّه لمعان البرق بحركة اليدين، واختار البرق الوليف لمناسبته لحركة اليدين، لأنه يلمع برقتين.

أحارِ تــری برقاً كأنّ وميضه ... كلمع اليدين فی حَبیٍّ مُكلل

يضیء سناه أو مصابيحُ راهبٍ ... أهان السليط فی الذبال المفتل

(امرؤالقيس، ١٩٨٤م: ٢٤)

وعبيد بن الأبرص هو الذی حرص علی مراقبة البرق وتأمله، فَأرقَّ، وسهر، ولرؤيته واستطلاعه، يحدوه فی ذلک شوقه وترقبه لنزول الأمطار الغزيرة:

يا من لبرق أبيت الليل أرقبه ... من عارض كبياض الصبح لمّاح

دانٍ مسفٍ فويق الأرضِ هيدبه ... يــكاد يدفعه من قــام بالراح

(ابن الأبرص، ١٩٥٧م: ٢٤)

www.SID.ir

Archive of SID

التوظيف الشعرى للمطر

أكثر الشعراء من توظيف صورة المطر فی موضوعاتهم المختلفة حتّی بدت واضحة جلية فی كل معالمها وجزئياتها وكانوا ينشدون فی ذلک صور الكمال والوصول إلی ما هو مثالی فی كل موصوفاتهم.

لذلک لابدّ لدارس صور الشعراء من التحليق معهم فی تصوراتهم المثالية للإنسان والكون والكائنات، حتی يمكن تحديد معالم صورة المطر، ومدی ما أفاد منها هؤلاء الشعراء فی إعلاء شأن تلک الموضوعات التی تناولوها بالوصف، والتعرف علی قيمهم ومثلهم السائدة فی مجتمعاتهم القديمة، سواء فی تصورهم المثالی لجمال المرأة وحسنها، وعفتها وطهارتها، وكل ما يندرج فی ذلک من محاسن خلقية ومعنوية، وهذا هو موضوع الغزل، أو الإعلاء من القيم الرفيعة التی يتحلی بها ممدوحوهم، من كرم، وشجاعة ومروءة، ونبل، إلی آخر ما هنالک من قيم يتحلی بها الإنسان فی حياته فيمدح بها، وهذا هو موضوع المدح، كما يتحلی بها الإنسان بعد مماته فيرثی وهذا هو موضوع الرثاء، إضافة إلی أنه ينفتح المجال إلی أغراض متعددة من الشعر وظف الشعراء فيها صورة المطر خير توظيف مثل وصف الحيوان، والأطلال، والحرب.

ومن ذلک كلما يمكن القول أن الحياة والموت قد صُوِّرا فی المطر من خلال توظيف شعری تناوله الإنسان والكائنات من حوله فی حالتی: الثبات والحركة، والجمود والتطور.

ها نحن نری الشاعر يتخذ من المطر وسيلة لاجتياز واقع الإنسان والتحليق فيما وراء الواقع، أو بمعنی آخر لايقتصر الشاعر علی ما هو كائن فحسب بل يتجاوز ذلک إلی ما ينبغی أن يكون، وبذلک نجد الطموح إلی (النماذج العليا)، إذا صحّ التعبير، فهناک المرأة العادية تقابلها المرأة المثال أو النموذج فی جانبيها الحسی وغير الحسی، وهناک الممدوح والمرثی فی نموذجيهما الواقعيين ونموذجيهما المثاليين، ولذلک رسم الشاعر ـ من خلال ـ توظيف المطر ـ الصورةَ المثالية لأبطال مجتمعه أو (نماذجه العليا).

وإذا صحّ ذلک بالنسبة للعقلاء، فهو فی الوقت نفسه ينطبق علی غيرهم من الحيوان والطل والحرب وكل ما لايعقل.

www.SID.ir

Archive of SID

إن الشاعر هنا يتخيل (مجتمعاً مثالياً) أو إن شئتَ قلتَ يصنع فی خياله (مجتمعاً مثالياً) هو صورة ما يتمناه لأمته على مستوى الإنسان وعلى مستوى الكون والكائنات باعتباره شاعر قبيلة أولا ولغة قومية ثانياً، وفی ذلک كله لاتغيب عن الشاعر الثنائية التی تعنی أن «بضدها تتميز الأشياء»، تلک الثنائية التی تعنی أن لكل شیء نموذجه الأدنی ونموذجه الأعلی. والشاعر دائماً يتجه إلی النماذج العليا، ترى إلی أی حدّ وظّف الشاعر المطر من أجل رسم صورة المجتمع المثالی الذی يتخيله.

المطر وصورة المرأة

وجد العربی الجمال فی باديته متمثلا فی مصدرين أساسيين هما: الطبيعة والمرأة، وقد فتنه جمال الطبيعة الساحر فتغنی بصحرائها وحيواناتها، ووديانها، ورياضها، وسحابها، وبرقها، ورعدها، ومطرها، وغديرها، وسيلها.

وسَحَره جمال المرأة فتغزل بمفاتنها المادية والمعنوية، ووجد أن الصلة بين جمال المرأة وجمال الطبيعة صلة كبيرة، فالمرأة بمفاتنها الجميلة ترمز إلی ما فی الطبيعة من إبداع وسحر وجمال لذلک تجلت الطبيعة فی تشبيهاته وأوصافه للمرأة.

وظاهرة المطر من أهم الظواهر الطبيعية التی أثرَت فن الغزل من حيث التصوير والتعبير، ومن حيث المعانی والصفات. والمطر متغلغل فی نفس العربی يرتبط معه بعلاقة مصيرية أساسها الحياة والموت، الخصب والجدب، الغنی والفقر. والمرأة كالمطر رمز للخصب والحياة والنماء، وشوقه وحبّه لها كشوقه وحبّه للمطر، لذلک استعار لوصفها أجمل ما فی فكرة المطر من معان، فصارت كل مقارنة لديه تستمد أصولها من تقارب أو تشابه أو تناسب بينها وبين المطر.

وسنطلع هنا على استفادة امرئ القيس وعبيد بن الأبرص من ظاهرة المطر وتوابعها فی غزلهما وكيف طوّعا الصور والأخيلة المستمدة من هذه الظاهرة فی تشكيل صورة المرأة المثالية التی أحباها. ونكتفی بأنموذجين بسبب ضيق المجال.

www.SID.ir

Archive of SID

الريق والخمر والمطر

تشكل الخمر وماء المطر صورة أخرى من صور الريق التى عنى الشعراء بها فى تشبيهاتهم وأوصافهم لريق المرأة، فجمعوا بين «المدام وغريض المزن» و«العانية وصوب الغادية» و«الخمر وماء الندى» و«المدام وماء السحاب» وما إلى ذلک مِن التركيبات والأوصاف، فامرؤالقيس يعتمد فى وصفه على حصر المعنى الكثير فى اللفظ القليل، فريق محبوبته خمر تسكر، وسحاب يمطر، وعطر يعبق، ولا شک أنه أراد من هذه التشبيهات المتلاحقة التدليل على طيب ريق صاحبته:

كأن المــدام وصوبَ الغما ... م وريح الخزامَى ونَشر القطرْ

يعــلّ بــه بــرد أنيابهــا ... إذا طرب الطائر المســتحرْ

(امرؤالقيس، ۱۹۸۴م: ۱۵۸-۱۵۷)

ويتجلى الأثر النفسى للريق فى صورة عبيد بن الأبرص، الذى شبه ريق محبوبته بمدامة مشعشعة ممزوجة بماء سحاب يسير شاربها مختالاً مرخى الإزار لشدة أثرها فيه، ويؤكد قيمة تلک الخمر المحفوظة فى أباريق الفضة، بما تدّره من ثمن بريح لبائعها ليوحى إيحاءً خفياً بقيمة المرأة وعزتها:

أمن أم سلم تلک لا تستريح ... وليــس لحاجات الفؤاد مريح

إذا ذقتُ فاها قلتُ طعمُ مدامة ... مشعشــة ترخى الإزار قديح

بماء سحاب فى أباريق فضة ... لها ثمــن فى البائعيــن ربيح

(ابن الأبرص، ۱۹۵۷م: ۳۰-۲۹)

الحيوانات والمطر

المطر هول الوجه الساكن من الطبيعة الذى تغنى به الشعراء على امتداد العصور واختلاف فتراتها الأدبية والسياسية؛ وهناک وجه آخر للطبيعة تربّع على عرش الذاكرة الأدبية، وخط معالمه فى الإنتاج الشعرى، هذا الوجه، حىّ نابض يعيش مع الإنسان ويتفاعل معه منذ بدايته. إنه هو الحيوان، هذا الكائن الحّى الذى ارتبط مع العربى فى صحرائه برباط قوى أساسه تبادل المنفعة، وإن كان اعتماد أحدهما على الآخر يفوق

www.SID.ir

Archive of SID

اعتماد الثانی. لذلک أحب الإنسان العربی الحیوان، وانساب وصفه علی لسانه انسیاب قطرات المطر التی عشقها، فتتبع هذا الحیوان فی حیاته وطرق معاشه وخطرات نفسه، وعاشر الألیف منه، وطارد الوحشی الشارد.

وحین صور الشعراء الحیوان، وجَسّموا معاناته مع الطبیعة الساکنة المتمثلة فی ظاهرة المطر، لم یقصدوا فقط بیان مدی التفاعل بین وجهی الطبیعة المختلفین، ولکن أسقطوا معاناتهم فی هذه الحیاة علیها لیرمزوا إلی مشاعر کثیرة تجتاحُ نفوسهم. وهنا تذکر بعض النماذج فی هذا الموضوع من أبیات الشاعرین امرئالقیس وعبید بن الأبرص.

فامرؤالقیس هو الذی یشبه سرعة فرسه وانطلاقه خلف ثور الوحش بغیث العشی الغزیر الأقهب الذی یمیل لونه إلی الکدرة مع البیاض ونعته أیضا بالمتودق، والمتودق من الودق وهو الشدید من المطر، لیوحد بینهما فی السرعة والانطلاق:

وأدرکهــن ثانیاً مــن عنانه　　کغیث العشی الأقهب المتودق

فصاد لنا ثوراً وعیراً وخاضباً　　عداءً ولم ینضَح بماءٍ فیعرق

(امرؤالقیس، ۱۹۸۴م: ۱۷۴)

وفی رحلة صید أخری ینطلق فرسه کشؤبوب العشی، بوابل من الجری المتواصل مثیرا عاصفة من الغبار، الذی غطی کل شیءٍ أمامه کأنه الدخان:

وولی کشــؤبوب العَشیِّ بوابل　　ویخرجن من جعدٍ ثراه منصب

(نفس المصدر: ۵۰)

وفی تشبیه سرعة ناقته یشبه بالجهام، وهو السحاب الذی أراق ماءه فأخذ یسیر سیراً خفیفاً سریعاً تحدوه الریاح فی أفق السماء، یقول:

تروح إذا راحَت رَوَاحَ جَهامةٍ　　بِإثــر جهــام رائــح متفرقِ

(نفس المصدر: ۱۷۰)

وأمّا عبید بن الأبرص فجمع فی تصویره لقصة ثور الوحش بین خیر المطر وشرّه، فقد صّور الثور وهو ینعم بطیب العیش فی وسط روضة غناء جادها الربیع بولیه، فغزرت وطال نبتها وفاحت بالعبیر والزعفران، إلا أنّ هذا النعیم والصفاء لم یدم، فقد فاجأت هذا الثور لیلة سوداء مظلمة من لیالی رجب الباردة، بأمطارها الغزیرة التی أخذت تسحّ علیه

www.SID.ir

Archive of SID

سحّاً، ففرّ إلى شجرة الآلاء ليحتمى من مطرها وبردها وكل عضو منه يرعد:

وكأن أقتــادى تضمن نِســعَها ... من وحــشِ أورال هبيط مفردُ
باتــت عليــه ليلــة رجبيــة ... نصبا تســحُّ المــاء أو هى أبرد
ينفــى بأطراف الألاءِ شــفيفها ... فغدا وكلّ خصيــل عضويرعَدُ
كالكوكب الدُرى يشــرقُ متنهُ ... خرصــا خميصا صلبُــهُ يتأودُ
فى روضة ثلــجَ الربيعُ قرارَها ... مَوليــة لــم يســتطعها الــرُّوَّدُ
وبــدا لكوكبها صعيــدُ مثل ما ... ريحَ العبيرُ على الملاب الأصفد

(ابن الأبرص، ١٩٥٧م: ٤٤-٤٣)

النتيجة

بعد كل ما تقدم من استقراء وبحث لموضوعنا هذا وبعد ارتياد دروبه الشاقة وهالاته الغامضة، حان وقت اجتناء قطوفه وإن لم تنضج بعد وتكتمل.إن نظرة عامّة لما سبق تؤدى إلى النتائج والآراء التالية:

١. إن وصف الطبيعة فى الأدب العربى وصفاً قديماً، والشعراء قاموا بوصف البيئة الصامتة والمتحركة فى أشعارهم ووصف الطبيعة الصامتة رائج عند شعراءنا الثلاثة أيضاً وكلهم على مستوى واحد.

٢. إن اهتمام الشعراء بالماء اهتماماً بالغاً وقاموا بوصف الماء فى جميع صفاته وتشبيهاته، ونجد الشعراء كلهم مهتمين بهذا الأمر وأتوا بأبيات كثيرة فى هذا الموضوع. فامرؤالقيس وعبيدٌ أتيا بوصف الماء وذكره أكثر اتساقا من النابغة الذبيانى، لكنّ النابغة رغم أنه وصف الماء وشبهّه أيضاً، قام بهذا الأمر فى أبيات متفرقة ونرى هذه الأبيات فى ديوانه من هنا وهناك.

٣. إن السحاب والرياح والرعد والبرق من معطيات المطر فهى حظيت بنصيب وافر فى التوصيف والتشبيه فى أشعارهم، لكن النابغة الذبيانى، فهو قام بذكر السحاب والرياح ولم يذكر الرعد والبرق إلا خلال توصيفاته للسحاب وشأنه فى هذا الموضوع ليس كشأن صاحبيه، فهما امتازا الرعد والبرق من السحاب فى كثير من أبياتهما. والشعراء

www.SID.ir

Archive of SID

كلهم قاموا بذكر الرياح وتوصيفاتها، لكنهم لم يذكروا شيئاً مِن الدبور وهى ريح تقابل الصبا ومهبّها جهة المغرب.

۴. إن أكثر الأوصاف للمطر وتشبيهاته، متشابه لدى هولاء الشعراء، فى الاسم وفى الصورة وفى التركيب، ونجد التفاوت قليلا فيها، وأكثروا بتوظيف صورة المطر فى موضوعاتهم المختلفة حتى بدت واضحة جلية فى كل معالمها وجزئياتها، وكانوا ينشدون فى ذلک صور الكمال والوصول إلى ما هو مثالى فى كل موضوعاتهم.

۵. إنّ ذكر المواضع التى تجمع فيها الماء كثير فى دواوين الشعراء الثلاثة لكن المواضع التى يجرى فيها الماء ليس لها شأن كالمواضع التى يجتمع فيها الماء.

فلها ذكر قليل عند هؤلاء الشعراء ولاسيما عند عبيد بن الأبرص والنابغة الذبيانى. نجد أبياتاً كثيرة فى ذكر البحر والنهر وتوصيفاتهما فى دواوين الشعراء هؤلاء، لكنهما لم يحظيا بنصيب وافر كالماء والمطر. فهؤلاء الشعراء ألموا بذكر الماء والمطر أكثر من إلمامهم بالبحر والنهر.وأخيرا استطاع هذا البحث أن يثبت أنّ وصف المطر يشكل جانباً هاماً من جوانب الشعر العربى عبر العصر الجاهلى، هذا الاهتمام المنبثق من أهمية المطر فى حياته فى شبه الجزيرة العربية التى يغلب عليها الجفاف وندرة المياه . وأنّ صورة المطر من أهم العناصر التى شكلت شعرهم وتصاويره الفنية والأدبية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن الأبرص، عبيد. ۱۹۵۷م. *ديوان*. تحقيق وشرح الدكتور حسين نصار. مصر: مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده.

ابن أوس، أبوزيد سعيد بن أوس الأنصارى. ۱۹۱۰م.*كتاب المطر*. بيروت: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين.

ابن دريد، أبوبكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى. ۱۹۶۳م.*كتاب وصف المطر والسحاب وما نعته العرب الرواد من البقاع*. دمشق: مطبوعات المجمع العلمى العربى.

ابن سلام، محمد بن سلام الجمحى. ۱۹۷۴م. *طبقات فحول الشعراء*. مطبعة المدنى.

ابن منظور، أبوالفضل جمال الدين محمد بن المكرم الأنصارى. لاتا. *لسان العرب*. مصر: دارالمعارف.

www.SID.ir

Archive of SID

امرؤالقیس. ۱۹۸۴م. *دیوان*. تحقیق محمد أبوالفضل إبراهیم. مصر: دارالمعارف.
العسکری، أبوهلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعید. ۱۳۵۲ق. *دیوان المعانی*. لانا.
المیدانی، أبوالفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهیم النیسابوری. ۱۹۵۵م. *مجمع الأمثال*. تحقیق محمد محیی الدین عبدالحمید. مطبعة السنة المحمدیة.
النویری، أحمد بن عبدالوهاب. ۱۹۲۹م. *نهایة الأرب*. مصرة دار الکتب المصریة.

www.SID.ir